العاشق

في البدء لم يعرف أحد في الغبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها ، دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئا من أشيائها الصغيرة ولكنه أبدا لم يستطع ان يكون من ناسها ، ويبدو انه هو ذاته لم يكن راغبا في أن يصبح كذلك . لقد تسلل اليها بلا صوت وبقي صامتا طوال الوقت تقريبا وهكذا فقد حرم الناس حتى من أن يجدوا فيه قصة يحكونها بعد أن حرمهم من أية علاقة معه ، وفي الحقيقة فهم لم يروه تماما الا بعد مضي زمن طويل على قدومه ، حتى انهم تعرفوا اليه عبر حكاية رواها لهم الشيخ سلمان ، كبير الغبسية ، الذي يملكها بأرضها وناسها ودوابها وزيتونها . « لو تعرفون ما حدث لقاسم هذا الصباح » وهكذا عرفوا اسمه لاول مرة ، ولكن قلة منهم استطاعت في تلك الوهلة ان تذكر ملامحه ، انه ، لاول مرة ، صار موجودا فجأة ، ويبدو ان حضوره بهذا الشكل على لسان الشيخ سلمان ربطه به الى الابد ، ولم يعرف قاسم نفسه في حياته كلها رجلا استوقفه الا وسأله عن حال الشيخ سلمان .

لقد جاء قاسم في ديوانية الشيخ سلمان ذلك الصباح فجأة ، ودون توقع ، دخل الى الناس مع ايقاع صوت الشيخ سلمان المهيب وسط الصمت الذي كان يخيم عادة كلما تحدث ، والحقيقة ان قاسم نفسه كان في تلك اللحظة جالسا بهدوء على كوم من التبن في الاسطبل ينظر بحيرة الى قدميه وقد رفعهما قليلا الى فوق ، وكان الشيخ سلمان يقول لزواره انه صحا في الفجر فصلى وكان المنزل صامتا ومستغرقا في النوم . اخذت كرسيا وخرجت ، كانت السماء جدارا عاليا من البللور النقي باردا وبعيدا وكان الفضاء يشبه الدخان ، وراء البيت سمعت صهيلا صغيرا وصوتا زاجرا ثم رأيت رجلا يطل من وراء الجدار مع الفرس .

كنت قد غسلت الفرس وسقيتها وجعلتها تخب في الساحة الخلفية للدار كي تنفض النوم عن عضلاتها ، وعرفت حين وقفت فجأة وصهلت ان الشيخ سلمان قد خرج من البيت ، وحين صرت مع الفرس على زاوية البيت رآنا ، فأشار لي أن أتقدم .

سألته ان كان معجبا بالفرس فهز رأسه وربت على كتفها ونظر في عينيها وابتسم ، عندها سألته عن اسمه فقال « انا قاسم » ثم سألته ان كان يستطيع أن يحضر لي فنجانا من القهوة فهز رأسه ونظر في عيني الفرس ورأيتهما يبتسمان لبعضهما ثم يسيران معا دون ان يقود أي منهما الآخر .

وضعت الفرس في مربطها وأخذت بنا من داخل البيت وجمعت حطبا ومضيت ، في دورة واسعة حول الساحة الامامية للبيت كي اتجنب المرور من أمام الشيخ سلمان ، الى أول الحقل . كانت نارا جيدة .

واخذت اراقبه من بعيد ، عبر الساحة الامامية ، ينفخ النار ويهز فيها وفوتها ابريق النحاس هزة العارف ، كان رجلا صلبا وقد رأيت عضلاته تحت قميازه الرقيق تتكور مشدودة وهو يحني قامته الطويلة فوق النار ، وبدا لي لوهلة ، وهو محني فوق الوهج أمام صفحة السماء الشهباء ، يشبه الحصان الفتي . وتساءلت : من ترى وجده وأعطاه عملا هنا ؟ وفي اللحظة التالية انتصب واقفا فبدا أطول مما توقعت ولوح بالابريق ثم بدأ يتجه نحوي ، عبر الساحة . . وكدت انتصب واقفا وأصرخ الا انني ، قبل أن أتزحزح ، كان الاوان قد فات ، ورأيته بأم عيني يدوس على الرماد الذي تخلف من نار ليلة أمس الكبيرة التي اشعلناها في الساحة ، وقلت لنفسي « اذن ، فالرماد قد برد » وتنفست